ظاهرة العشق عند مولانا جلال الدين

بهروز حسن نژاد*

الملخص

لاريب أنّ مولانا جلال الدين مفكّر عظيم، وعارف كبير، وشاعر شهير فى العالم عامّة، والحضارة الإسلامية خاصّة. والتحدّث عن أفكاره، والكتابة عن وجهات نظره حول الخالق، والإنسان، والمفاهيم البشرية، والعرفانية، ليسا بهذه البساطة. والتوجّهات البشرية، والإقبالات العامّة لاتجاهاته الفكرية، والمعنوية فى أنحاء العالم، تثبت لنا هذا الموضوع. والخطأ كلّ الخطأ أن ننظر إلى الإنسان نظرا إلى الشىء المستقلّ عمّا قبله، وعما بعده. ذلک الذى لا يتصل بشىء، ممّا حوله، لايتأثر مما سبقه، أو أحاط به، ذلک خطأ لأن الكائن المستقلّ هذا المستقل، لاعهد له فى العالم. لذلک مولانا كان متأثّرا من عهدِه، وموثّرا فيما بعده. وهذا التاثّر، وذلک التّاثير بشكل عظيم، يعتبران إحدى العلائم، لكبار الرجال الفكريين. ولن ننسى بأنّه عاشق، أو محبّ، فيصور الله، عزّ وجلّ، كمعشوق. وهو يعتقد بأنّ الإنسان، يقدرُ أن يتمسّک بالله، ويصل إليه، بذريعة الحبّ دائما. والحبّ هو أثمن المفاهيم، وأسمن المضامين، وأغناها، وأكبرها عند عارفنا الكبير، وهذا المقال يتحدّث عنه.

الكلمات‌الدليلية: الحبّ، الله، الحبيب، العارف.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فى جيرفت.

تاريخ الوصول: ١٣٨٨/٨/١١هـ. ش تاريخ القبول: ١٣٨٨/١١/٢٠هـ. ش

المقدمة

هذا العشق الّذى فهمه الصوفية من التعبير القرآنى: ﴿يحبّهم ويحبّونه﴾ (المائدة: ۵۴) تجلّى منذ اللحظة الأولى للخلق. فرعه فى الأزل، وأصله فى الأبد. كما يقول مولانا فى ضرب من المفارقة. (د/۴۱۸۳/۳۹۵) بدأ هذا العشق بالخطاب الإلهى: ﴿ألست بربّكم قالوا بلى﴾ (الأعراف: ۱۷۲) فى مهرجان الميثاق الأزلى. تلك الجرعة الأولى من الكأس الأبدية للسعادة، والبلاء، والاشتياق.لأنهم بإجابتهم (بلى) قبلوا كلّ شىء. فى كلمات الأنبياء، وفى ذكر الدراويش، وألحان السّماع، هذا الخطاب الإلهى الأزلى الذى موضوعه العشق، جىء به إلى عامّة النّاس، لعلّهم يتذكرون العهد السّابق، ويوجَّهون إلى حبيبهم. ومولانا لايخلو من هذه القاعدة.يردّ مولانا عندما سئل أحد أصدقائه عن صفة العشق، سأل سائل: ما صفة العشق؟ قلت: لاتسأل عن هذه المعانى، عندما تصير مثلى ستراه، عندما يدعُوك ستدعُوه. (د ۲۹۰۵۰/۲۷۳۳)

فتجربة مولانا فى العشق، والهجر، والوصال الروحى، والمعنوى كانت وثّابة بديعة رائعة مليئة بالحرارة، والحلاوة، والنشاط. وهذه التجربة قهرته، وأحرقته، وجعلته ملعبة أطفال الحى. (د/ ۱۹۸)[۱] فلذلک كلماته حول العشق، تشكّل موجا مفعما بالنارّ التى كلّ من أصابها يحترق ويندلع. (م/۹/۱)[۲] هذا العشق، هو الأسطرلاب الحقيقى (م/۱۱۰/۱)[۳] لأسرار الحقّ؛ أشعله، وأضرمه لقاءه بشمس الدّين التبريزى، لكنّه يختلف عن تجارب أولئک الصوفية، والعرفاء الذين رأوا الجمال الإلهى منعكسا فى الشبّان الجميلين. هو يعرف، ويعترف بأنّ العشق الأرضى، كمرقاة، وقنطرة للعشق السماوى، وليس سواه. (م/۱۰/۱)[۴] يعطِى النّاسُ بناتِهم الصغيرات، دمى ليعلّموهنّ، واجباتِهنّ؛ بوصفهنّ أمّهات المستقبل، ويعطون أولادَهم، سيوفا خشبية، ليعوّدوهم على القتال، والحروب، والفروسية، فبالأسلوب نفسِها يتربّى قلب الإنسان، أو السالک بالعشق البشرى، ويستعدّ للاستسلام بمراد الحبيب أو الله. (م/۵/ ۳۵۹۷)؛ (د۳۳۷/۲۷)[۵] فإنّ العشق، للأجساد، والأموات، لايدوم. (م/۲۱۷/۱)[۶] والعشق الحقيقى ينبغى أن يوجّه إلى الله الّذى لايموت. (م/۱/ ۲۱۹)[۷] وعندما تقع صنّارة العشق فى حلق الإنسان، يجذبه الحق تعالى تدريجيا؛ وهكذا تخرج منه تلک الصّفات السيئة، والدّماء الفاسدة

الّتی تکوّنت فیه شیئا فشیئا. (مولانا، ۱۳۴۸ش: ۱۲۷) والعشق خلیقة فطریة، وسجیة ذاتیة فی کلّ مخلوقٍ: الذئب، والدّبّ، والأسد یعرف العشق، وأخسّ من الکلب، من هو أعمی عن العشق. (م/۵/۲۰۰۷)[۸]

والعشق یکسّر ارستقراطیة الملوک ویحطّمها؛ واستنادا علی هذا یصبح الملک عاشقا للتلک الأمة. (م/۱/ ۳۶،۳۷،۳۸)[۹] فاعلم أنّ دوران الأفلاک من موج العشق، ولولا العشقُ لیجمد العالم. (د ۲۶۸۴/ د ۲۸۳۶۵)[۱۰] یری مولانا جلال الدّین قوة العشق وسطوته وحدّته فی کلّ العالم: العشق بحرٌ والسماء فوقه زبدٌ، مثل زلیخا فی هوی یوسف. (م/۵/ ۳۸۵۳ ومابعده)[۱۱] والعشق دواء یطّهر کلّ شخص یتحلّی به. (م/۱/۲۲)[۱۲] هو الطبیب لکلّ الأمراض، وهو یمثل لنا أفلاطون وجالینوس فی شخص واحد.(م/۱/ ۲۳،۲۴)[۱۳] مثلما تحول الشمسُ الظّلالَ المظلّةَ الکئیبةَ، والظّلام البائس، والیائس إلی جمالٍ ملون، ومروع، ویکون العشق کیمیاء عظیمة، وکریمة، تحول الحیاة البشریة؛ والشاعر یعتقد أن بالمحبّة تصیر الأشیاء المرّة حلوة، کما تصیر الأشیاء النّحاسیة ذهبیة الصفات، وبالمحبّة تصیر الأشیاء العکرة صافیة، وبالمحبّة تصیر الآلام شفاءً، وبالمحبة یحیا المیت، وبالمحبّة یصیر الملک عبدا. (م/۲/۱۵۲۹ومابعده)[۱۴]

قد نظم مولانا فی أواخر حیاته أن الشیطان لو صار عاشقا، لاختطف کرة السّبق، ولصار مثل جبرئیل، وماتت فیه تلک الصفات الشیطانیة. (م/۶/۳۶۴۸)[۱۵]

ذلک یعنی أنّ الصفات السیئة، والرذیلة فی الإنسان، المتمثلة فی النّفس، یمکن تربیتها بالعشق وحده، وکلّما کان الشیطان قویا فی السّابق حالما یکون قد أسلم نفسه لسلطان العشق. والشمس مظهر شمس الدّین التبریزی، وشمس الدّین مظهر العشق لمولانا. ومذهب العشق یختلف عن الأدیان جمیعا. (م/۲/۱۷۷۰)[۱۶]

العشق لایشرَح، وعدمُ شرحِهِ یخجل الإنسان، والعقل لایستطیع أن یشرحه. (م/۱/ ۱۱۳،۱۱۵)[۱۷] تقابل العشق، والعقل المنطقی کان دائما موضوعا محببا لدی الصوفیة. یدخل الشاعر مناقشة رائعة بین العشق، والعقل المنطقی فی أشعاره الغنائیة؛ إذ یقول العقل: الجهات الستّ هی الحدّ، ولیسَ ثمة طریق إلی الخارج، ویقول العشق إن هناک

طریقا وقد مشیته مرّات، رأی العقل سوقا وبدأ بالتجارة، رأی العشقُ أسواقا أخری وراء هذه السوق. (د/ ۱۳۲/۱۵۲۲-۱۵۲۴)[۱۸]

وینبغی للعقل أن یصبح نحیلا، عندما یکون العشق سمینا. (د/۲۱۹۰/۲۳۲۴۶)[۱۹] ولایعرف الفقهاء شیئا من العشق، حتّی أبوحنیفة والشافعی، لم یعرفا ظاهرة العشق مصرّحا فی قصة (وکیل صدر جهان) فی المثنوی. (د/۳/ ۳۸۳۱-۳۸۳۲)[۲۰]

یعجز العاقلون عن فهم العشق کما یعجز الطفل عن فهم أحوال العقل. (م/۵/۳۹۳۲)[۲۱] العشق غیور إنّه شعلة تحرق الصورة الظاهریة، بل کلّ شیء ما عدا المعشوق. (م/۵/۵۸۸؛ ۳/۱۱۳۶)[۲۲] العشق هو الشّحنة التی یضع مرجلا مملوءا بنار الهجر علی صدر الروح حتّی یعذّبه عندما ینسی للحظة، واجبه فی تقدیم الشّکر للمعشوق. (م/۶/۱۹۹۴)[۲۳] العشق أسدٌ أسود أو تمساح، أو تنّین، آکل للإنسان. (م/۵/۲۷۲۶)[۲۴] لذلک صنیع الأبطال، کجمل سمین یدخل بیت دجاجة ویقوض دعائم البیت. (م/۳/۴۶۶۸)[۲۵] یدری بالضّبط فی العشق توقَف القواعد العادیة، والقوانین المرسومة لذا أدب العشق ترک الأدب تماما. ولیس للعاشق أدب متعارف. (م/۳/۳۶۷۸)[۲۶] والنسبة المثالیة بین العاشق، والمعشوق من أجملِ الموضوعات وأبسطها فی فکرة مولانا؛ عندما یأتی المعشوق یمحو العاشق ولابدّ للعاشق أن یفتش عنه، ویلهث له مثل الظلال التی تعشق النور وحینما یظهر النور تضمحلّ الظّلال. (م/ ۳/۴۶۶۰)[۲۷] ففی قصة سلیمان، والبعوضة، نری بأنّها تشکو من الرّیح، وأذیتها لدیه، وسلیمان بوصفه الحکم والعالم بلسان الطیور والحیوانات، یحکم بأنّ الرّیح یجب علیها أن تحضر فی المحکمة لأجل تعذیب البعوضة، وحینما تحضر الریح أمام سلیمان تمحو البعوضة، والرّیح مظهر المعشوق والبعوضة مظهر العاشق. (م/۳/ ۴۶۵۷،۴۶۵۸)[۲۸] ویأتی الشاعر بتمثیل آخر فی النسبة بین العاشق والمعشوق؛ وهو تمثیل الأسد بمنزلة المعشوق والظبی بمنزلة العاشق؛ عندما ینظر الأسد إلی الظبی یختطفه ویبتلعه. (م/۳/ ۳۶۷۶؛ م/۶/۵۷۶)[۲۹] لا حیلة للعاشق سوی الاستسلام أمام هذا الأسد الذی یمثّل المعشوق. (م/۶/ ۵۷۷)[۳۰] قد اخترع مولانا صورا لا حصر لها فی وصف العاشق، ویتابع

مولانا أمثلة النّورى وصوفية بغداد الأوائل الآخرين ويشبّه العاشق بالسحابة، عندما يبكى وبالجبل عند التحمّل، ساجدا كالماء، متواضعا كتراب الطريق، وهكذا فإنّ روضة الورد التى يجدها هى المعشوق.

والعاشق جلىّ فى كلّ مكان، شبيه بالجمل الذى اعتقد أنّه غير مرئى فوق المئذنة، سلوكه يذيع سرّه وحركته تفشى مختفياته، وكلّ ما يقوله يحمل شذا العشق عندما يلفظ كلمة (الفقه)، تتحول إلى (الفقر)، الفقر الرّوحى وعندما يقول (كفر) تحمل الكلمة رائحة الدّين. (م/١/٢٨٨٠)[٣١] العشق له رائحة المسک، وهذه الرائحة تفشى العاشق. (د/٣٠٤١/٣٢٣٣٥)[٣٢] ومثلما لايتحدّث العاشق إلا بالعشق، وفى العشق، يتوق إلى أن يسمع اسم المعشوق فى كلّ مكان، يتطلّع إلى الأطلال، آثار المنازل السابقة للمعشوق، ليتحدّث إليها حول الذكريات السعيدة، بالطريقة نفسها والتى يخاطب فيها شعراء العرب القدامى ديار الحبيبة التى غادرتها فى مطالع قصائدهم. (م/٣/١٣٤٥)[٣٣] أو يتمنّى أن يكون جبلا ليستمتع باسم المعشوق الذى يرّجعه الصّدى مرّات عديدة. (م/٣/١٣٤٩ ومابعد)[٣٤] ونستنبط من تجربته أنّ العاشق والمعشوق لا يمكن إلا أن يكون بينهما اتحاد بعبارة أدقّ، العشق يطلب فردا واحدا وأدبا خاصّا. (م/١/٣٠٥٦ ومابعد)[٣٥] ورغم أنّ هذا الشوق يجعل العاشقين ناحلين، وشاحبى الوجوه كأوراق الخريف يظهر العشق نفسه فى المعشوق فى شعاع متألّق كالرّبيع. (م/٣/ ٤٤٤٥ وما بعد)[٣٦] والعاشق كالخريف، والمعشوق كالربيع. العاشق يعميه العشق الّذى هو نورٌ. والنّاس أمامه مثل الظّلال. (م/٦/٩٨٣)[٣٧] أضاع العاشق نفسه فى المعشوق فضرب خيمته فى العدم. (م/٣/٣٠٢٣) [٣٨] ولا سلطان لملک الموت عليه. لم يبق منه إلا اسمه، وكلّ شئ آخر يملأ بالمعشوق، ذات صباح قال معشوق لعاشق على سبيل الامتحان: يا فلان بن فلان! أتحبّنى أكثر أم نفسه، قل الحقّ يا ذا الكرب؟ إذ ذاک سلّم المعشوق بأنّ اسمه فقط هو الذى أبقى له، فكيف يمكن أن يميز فى العشق. (م/٥/٢٠٢٠ومابعد)[٣٩] وفى نهاية الكلام بغضّ النظر أنّ الكلام عن العشق لاينفد، نختم كلامنا ببيت من ديوان الشمس، إذ يقول: كنت ميتا صرت حيا، كنت باكيا صرت ضاحكا، جاءت سعادة العشق وصرت سعادة راسخة.

(د/۷۲۸/۷۶۳۸)[۴۰]

النتيجة

هذا المقال تحدّث عن مولانا وعشقه، كما عالج بعض أفكاره حول الحبّ وتأثيره فی نفس العاشق. أخذ المقال ماء الفكرة، بالجرّة من محيط أعماق العشق، وإذا لم نكن نقدر أن نذيق ماء البحر تماما، بالاستطاعة أن نذيق على قدر إزاحة عطشنا. رأينا بأنّ العشق هو أثمن المفاهيم وأسمن المضامين وأغناها وأكبرها عند مولانا جلال الدين، لايمكن شرحه وعدم شرحه يخجل الإنسان، والعقل لايستطيع أن يشرحه. هذا العشق الّذی فهمه الصوفية من التعابير القرآنية (يحبّهم ويحبّونه) ومأخوذ منها. وفی رأيه كلّ أجزاء العالم عاشقة، وكلّ جزء من العالم مملّ باللّقاء. يری مولانا جلال الدّين، قوة العشق وسطوته وحدّته فی كلّ العالم. والعشق هو أهمّ الدواء الذی وصفه للبشرية.

الهوامش

۱. سجاده نشين با وقاری بودم — بازيچه ی كودكان كويم كردی
۲. آتش عشق است كاندر نی فتاد — جوشش عشق است كاندر می فتاد
۳. علت عاشق ز علت ها جداست — عشق اسطرلاب اسرار خداست
۴. عاشقی گر زين سر و گر زان سر است — عاقبت ما را بدان شه رهبر است
۵. چون ندارد از فتوت زور ودست — كودكان را تيغ چوبين بهتر است
۶. زان كه عشق مردگان پاينده نيست — زان كه مرده سوی ما آينده نيست
۷. عشق آن زنده گرين كو باقی است — كز شراب جان فزايت ساقی است
۸. گرگ وشير وخرس داند عشق چيست — كم ز سگ باشد كه از عشق او عمی است
۹. بود شاهی در زمانی پيش از اين — ملک دنيا بودش وهم ملک دين
اتفاقا شاه روزی شد روزی سوار — با خواصّ خويش از بهر شكار
يک كنيزک ديد شه بر شاهراه — شد غلام آن كنيزک جان شاه
۱۰. دور گردون ها ز موج عشق دان — گر نبودی عشق بفسردی جهان
۱۱. عشق بحری وآسمان بر وی كفی — چون زليخا در هوای يوسفی

۱۲. هر که را جامه ز عشقی چاک شد — اوز حرص وعیب کلّی پاک شد
۱۳. شاد باش ای عشق خوش سودای ما — ای طبیب جمله علت های ما
ای دوای نخوت وناموس ما — ای تو افلاطون وجالینوس ما
۱۴. از محبت تلخ ها شیرین شود — از محبت مسّ ها زرّین شود
از محبت دردها صافی شود — از محبّت دردها شافی شود
از محبّت مرده زنده می کنند — از محبت شاه بنده می کنند
۱۵. دیو اگر عاشق شود گوی برد — جبرئیلی گشت وآن دیوی بمرد
۱۶. ملّت عشق از همه دین ها جداست — عاشقان را ملّت ومذهب خداست
۱۷. هر چه گویم عشق را شرح وبیان — چون به عشق آیم خجل مانم از آن
شرح عشق وعاشقی هم عشق گفت — عقل در شرحش چون خر در گل بخفت
۱۸. عقل بازاری بدید وتاجری آغار کرد — عشق دیده زان سوی بازار او بازارها
۱۹. بند من افزوده گشت از پند تو — عشق را نشناخت دانشمند تو
۲۰. آن طرف که عشق می افزود درد — بوحنیفه وشافعی درسی نکرد
۲۱. گر نبیند کودکی احوال عقل — عاقلی هرگز کند از عقل نقل
۲۲. عشق آن شعله است کوچون برفروخت — هر چه جز معشوق باقی جمله سوخت
هست عشقش آتشی اشکال سوز — هر خیالی را بروبد نور روز
۲۳. شحنه ی عشق مکرّر کینه اش — تشت آتش می نهد بر سینه اش
۲۴. هر چه جز عشق است شد ماکول عشق — در جهان یک دانه پیش نول عشق
۲۵. چون به خانه مرغ اشتر پا نهاد — خانه ویران گشت وسقفش اوفتاد
۲۶. نبض عاشق بی ادب بر می جهد — خویش را در کفّه ی شه می نهد
۲۷. سابه هایی که بود جویای نور — محوگردد چون کند نورش ظهور
۲۸. اوچوآمد من کجا یابم قرار — کوبر آرد از نهاد من دمار
هم چنان جویای درگاه خدا — چون خدا آمد جوینده شد لا
پیش شیری آهوی مدهوش شد — هستی‌اش درهست‌اوروپوش‌شد
۲۹. ای رفیقان راه ها را بست یار — آهوی لنگیم واو شیر شکار
۳۰. غیر تسلیم ورضا کوچاره ای — در کف شیر نر خون خواره ای
۳۱.. مولانا، ۱۷۳۱ش: ۹۱.
۳۲.عشق بوی مشک دارد زان سبب رسوا شود — چاره نبود عشق را از خود چنین رسوا شدن
۳۳. نی که عاشق گوید روز وشب — گاه با اطلال وگاهی با دمن

۳۴. من چنان اطلال خواهم در خطاب کز سدا چون کوه وا گوید جواب...
۳۵. آن یکی آمد در یاری بزد گفت یارش کیستی ای معتمد
گفتش من گفتش بروهنگام نیست بر چنین جانب مقام خام نیست
خام را جز آتش وهجروفراق که پزد که وارهاند از نفاق
رفت آن مسکین وسالی در سفر در فراق یار سورید از شرر
چون بپخت آن سفر کرده پس بازگشت باز گرد خانه ی انباز گشت
حلقه بر در زد به صد ترس وادب تا بنجهد بی ادب حرفی ز لب
بانگ زد یارش که بر در کیست هان گفت بر در هم تویی ای دلستان
گفت اکنون چون منی ای من درآ نیست گنجایی دومن در یک سرا
۳۶. لیک میل عاشقان لاغر کند میل معشوقان خوش وخوش فر کند
۳۷. عشق ربّانی است خورشید کمال امر نور اوست خلقان چون ظلال
۳۸. عاشقان اندر عدم خیمه زدند چون عدم یک رنگ ونفس واحدند
۳۹. گفت من در توچنان فانی شدم که پرم من از تو از سر تا قدم
۴۰. گریه بدم خنده شدم مرده بدم زنده شدم دولت عشق آمد ومن دولت پاینده شدم

المصادر والمراجع

القرآن الکریم.

مولانا، جلال الدین محمد بلخی رومی. ۱۳۷۴ش. *دیوان جامع شمس تبریزی*. طهران: نشر فردوس مجید.

مولانا، جلال الدین محمد بلخی رومی. ۱۳۳۶ش. *مثنوی معنوی*. تصحیح رینولد نیکلسون. طهران: نشر أمیر کبیر.

مولانا، جلال الدین محمد بلخی رومی. ۱۳۴۸ش. *فیه ما فیه*. تصحیح وحواشی بدیع الزمان فروزانفر. طهران: نشر أمیر کبیر.

مولانا، جلال الدین محمد بلخی رومی. ۱۳۷۱ش. *مکتوبات*. تصحیح توفیق سبحانی. طهران: مرکز نشر دانشگاهی.